

## مصعب بن عبد الله الزبيري

وعدنا في مقدمة هذه الطبعة بكتابة فصل عن مصعب بن عبد الله الزبيري الذي قدم شعر ابن أبي ربيعة إلى القدماء، وقد رأى القارئ أننا نقدناه في المحاضرة الثانية نقدًا رآه أستاذنا الدكتور طه حسين إلى الظلم أقرب منه إلى الإنصاف، فلنف بها وعدنا به، ولنحدد بعد ذلك رأيًا في ذلك البحث الطويل الذي كتبه مصعب عن عمر، ورآه أستاذنا الدكتور طه من ذخائر الأدب القديم<sup>(١)</sup>.

مصعب الزبيري هو ابن عبد الله بن مصعب أحد الشعراء المجيدين والخطباء المفوهين، الذين نادموا أوائل الخلفاء من بني العباس، وتولوا لهم أعمالًا. وكان خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة على أبي جعفر المنصور فيمن خرج من آل الزبير، فلما قتل محمد استتر إلى أن حج أبو جعفر المنصور، وأمن الناس جميعًا فظهر، وكان يُلقب «عائد الكلب» لقوله:

مالي مرضتُ فلم يُعَدني عائِدٌ      وصدود عبدكُم عليّ شديد  
منكم ويمرض كلبكم فأعودُ      وأشدُّ من مرضي عليّ صدودكم

وذكر الربيع بن يونس أنه دخل على المهدي وإذا هو يكتب على الأرض بفحمة قول عبد الله بن مصعب:

فإن يجبوها أو يحمل دون وصلها      مقالة واشٍ أو وعيد أمير  
فلن يجبوا عيني من دائم البكا      ولن يخرجوا ما قد أجنَّ ضميري  
وما برح الواشون حتى بدت لنا      بطون الهوى مقلوبةً لظهور  
إلى الله أشكو ما ألقى من الجوى      ومن نفس يعتادني وزفير

(١) حديث الأربعاء ص ١٤٠ ج ٢.

ويقول: أحسن والله عبد الله بن مصعب ما شاء<sup>(١)</sup>.

ونعود إلى مصعب بن عبد الله فنذكر أننا لما نصل إلى الوقوف على تفاصيل حياته الأدبية، وإنما عرفنا مما ينقل عنه صاحب الأغاني أنه كان من كبار الكتاب في القرن الثالث، وإليه يرجع الفضل في تدوين أكثر أخبار المغنين والشعراء، وعبارته نقية واضحة سليمة لا يشوبها تكلف ولا غموض. وله شعر جيد لم يبق منه إلا القليل، وفيه على نزارته دليل على أنه كان من المبدعين.

ويظهر مما قرأناه من أخباره المتفرقة أنه كان يعيش في جماعة لها حظ من المال والجاه والجمال؛ فكانت حياته لذلك فيها نفحة وجدانية لا يظفر بها إلا من استظل بأعطاف الحسن الجامح والدّل الغضوب. كان متصلاً بأحمد بن هشام أخي علي بن هشام الذي كتب إليه إسحاق الموصلي: جعلت فداك، بعث إليّ أبو نصر مولاك بكتاب منك إليّ يرتفع عن قدري، ويقصر عنه شكري، فلولا ما أعرف من معانيه، لظننت أن الرسول غلط بي فيه، فما لنا ولك يا أبا عبد الله تدعنا حتى إذا نسينا الدنيا وأبغضناها ورجونا السلامة من شرها، أفسدت قلوبنا، وعلقت أنفسنا، فلا أنت تريدنا، ولا أنت تتركنا، فبأي شيء تستحل هذا؟ أما ما ذكرته من شوقك إليّ، فلولا أنك حلفت عليه لقلت:

يا من شكاً عبثاً إلينا شوقه	شكوى المحب وليس بالمشناق
لو كنت مشتاقاً إليّ تريديني	ما طبت نفساً ساعة بفراقني
وحفظتني حفظ الخليل خليله	وفيت لي بالعهد والميثاق
هيهات قد حدثت أموراً بعدنا	وشغلت باللذات عن إسحاق

(١) راجع أخباره في الجزء العشرين من الأغاني.

قد تركتُ جُعلتُ فِذاك ما كرهتَ من العتاب في الشعر وغيره، وقلت أحيانًا لا  
أزال أخرج بها إلى ظهر المربد<sup>(١)</sup> واستقبل الشمال، وأتئسم أرواحكم فيها، ثم يكون  
ما الله أعلم به، وإن كنت تكرهها تركتها إن شاء الله.

الاقـد أرى أن الثـواء قلبـلُ      وأن ليس يلقى للخليل خليل  
وإني وإن مُلِّيت في العيش حـبـةً      كذى سفرٍ قد حانَ منه رحيل  
فهـل لي إلى أن تنظر العين مرـةً      إلى ابن هشام في الحياة سبيل  
فقد خفت أن ألقى المنايا بحـسرة      وفي النفس منه حاجة وغلـيل

وقد تورط مصعب في صحبة هذه الجماعة، ولحقه من تقلبها بعض الشر  
والسوء، حين وقعت الجفوة بين أحمد بن هشام وإسحاق بن إبراهيم، فقد لقي أحمد  
مصعبًا فقال له: أما تستحي أنت وصباح بن خاقان المنقري وأنتما شيخان من مشايخ  
المروءة والعلم والأدب أن يشيد بذكركما إسحاق في شعره فيقول:

قد نمانا مُصعبٌ وصباحُ      فعصينا مصعبًا وصباحا  
عَدَلًا ما عدلنا ثم ملا      فاسترحنا منها واستراحا

فقال له مصعب: إن كان قد فعل فما قال إلا خيرًا. إنما ذكر أننا نهيناه عن خمر  
شربها، أو امرأة عشقها، وقد أشاد باسمك في الشعر بأشد من هذا. قال: بهاذا؟ قال  
بقوله:

(١) المربد - بالكسر ثم السكون وفتح الباء -: اسم موضع كان أهم أسواق البصرة، ثم صار محلة عظيمة  
سكنها الناس، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء. والمربد في الأصل كل شيء حبست  
فيه الإبل، وأنشد الأصمعي:

بيت بأبواب القوافي كأنني      أصيد بها سرّبًا من الوحش نزعاً  
عواصي إلا ما جعلت وراءها      عصا مربد يغشي نحوراً وأذرعاً

وصافية تُعشي العيون رقيقة  
أدرنا بها الكأس الروية موهناً  
فما ذرّ قسرن الشمس حتى كأننا  
رهينة عام في الدنان وعام  
من الليل حتى انجباب كل ظلام  
من العيِّ نحكى أحمد بن هشام

وكان صباح بن خاقان نديماً لمصعب بن عبد الله، فقال عبد الرحمن بن أبي عبد  
الرحمن - وكان خليعاً من أهل البصرة -:

من يكن إبطه كأباط ذا الخلد  
لي إبطان يرميان جليسي  
فكأن من نتن هذا وهذا  
ق فيبطاي في عداد الفقاح<sup>(١)</sup>  
بشبيه السلاح بل بالسلاح  
جالس بين مصعب وصباح

وقد ظل معصب وفيّاً لإسحاق الموصلي إلى أن مات، فرثاه بقصيدة بليغة  
نقتطف منها الكلمة الآتية:

أتدري لمن تبكي العيون الذوارفُ  
نعم لامرئ لم يبق في الناس مثله  
تجهز إسحاق إلى الله غادياً  
وما حمل النعش المزجج عشيّة  
صدورهم مَرَضِي عليه عميدة<sup>(٢)</sup>  
وينهلُّ منها واكف ثم واكف  
مفيد لعلم أو صديق ملاطف  
فلله ما ضمت عليه اللقائف  
إلى القبر إلا داسع العين لاهف  
لها أزمة من ذكره وزفازف<sup>(٣)</sup>

ذهبت وخليت الصديق بعولية  
إذا خطرات الذكر عاودن قلبه  
به أسف من حزنه مترادف  
تسابع منهن الشئون النوازف

(١) الفقاح جميع فقحة، وهي حلقة الدبر.

(٢) عميدة: مجروحة.

حبيبٌ إلى الإخوان يزون مباله  
هو المَنُّ والسُّلوى لمن يستفيده  
بكت داره من بعده وتكمرت  
هي الدار إلا أنها قد تخشعت  
وقد كان فيها للصديق معرَّسٌ  
وملتمسٌ إن طاف بالدار طائف

سريعٌ إلى إخوانه يرضاه  
أرى الناس كالنسناس لم يبق منهم  
وعن كل باسء الإخلاء صارف  
خلافك إلا حسوة وزعانف

### آراء مصعب في النقد:

كان مصعب من الكتاب والنقاد الممتازين، ولكن نقده لم يصل إلينا بطريقة تُفصّل ما كان له من قواعد وأصول، فلم يبق إلا الاستئناس بما تفرق من آرائه، لنرى كيف كان يفهم الشعر، وكيف كان يحكم على الشعراء.

رأيناه يقضي في شعر العباس بن الأحنف وعمرو العراف، فيقرر أنهما «ما ابتذلا شعرهما في رغبة أو رهبة؛ ولكن فيما أحباه، فلزما فناً واحداً لو لزمه غيرهما ممن يكثر إكثارهما لضعف فيه».

وهذا نظر بعيد من مصعب، فإن الشاعر الذي يكثر في فن واحد ويجيد مع الإكثار، أولى بالتقدمة ممن يجيد في طائفة من الفنون، وفي كلامه تقدير لصدق العاطفة العاطفة التي تعد أساساً لجودة الشعر البليغ.

وقيل له: إنَّ الناس يستبدون شعر العباس بن الأحنف، فقال: لقد ظلموه!  
أليس هو الذي يقول:

قالت ظلومٌ سَويَّةُ الظلم      مالي رأيتك ناحل الجسم  
يا من رمى قلبسي فأقصده      أنت العليم بموقع السهم

وهو في هذا يذكرنا بكثير من القدماء الذين كانوا يحكمون للشعراء أو عليهم بشواهد من شعرهم، من غير أن يبينوا مواطن الضعف ومواقع القوة، وكذلك كان يرى أبا العتاهية أشعر الناس إذ قال:

تعلقت بأممٍ بال      طوال أي أمم بال  
واقبلت على الدنيا      ملأ أي إقبال  
أيها هذا مجهز لـ      سفراق الأهل والمال  
فلا بد من الموت      على حال من الحال

ولعل أظهر آثار مصعب في النقد هو كلمته المطولة في خصائص شعر عمر بن أبي ربيعة، وقد تكلمنا عنها في المحاضرة الثانية، وأشار أستاذنا الدكتور طه في حديث الأربعاء إلى أننا أسرفنا في نقده، وأن مصدر هذا الإسراف أننا لم نقدر كما ينبغي اختلاف المثل الأدبية باختلاف العصور والأجيال.

وهذا حق؛ إذ كان النقد يتأثر باختلاف الأذواق، وأنه لا يجب أن يرضينا ما كان يرضى أسلافنا من قبل، ولكن أليس في كلام مصعب بعد نقدنا له شيء يستحق التقدير؟

لقد بحثت في ذلك طويلاً، فرأيت في كلمة مصعب ناحية لها حظ عظيم من الأهمية؛ وذلك أنه أراد التنويه بما أبدع ابن أبي ربيعة من التعابير، وأحدث من الصور: من ذلك تحيير ماء الشباب في قوله:

وهي مكنونةٌ تحيّر منها  
في أديم الخدين ماء الشباب  
وغم الطير في قوله:

سراعاً نغم الطير إن سنحت لنا  
وإن تلقنا الركبان لا نتخسّر  
ومخالفته بسمعه وطرفه في قوله:

سمعي وطر في حليفاها على جسدي  
فكيف أصبر عن سمعي وعن بصري  
وإغلاقه رهن منى وإهداره قتلاه في قوله:

فكم من قتيل ما يبء به دمٌ  
ومس غلقتي رهناً إذا لفتني منى<sup>(١)</sup>  
وجنيه الحديث في قوله:

فاجتينا من الحديث ثماراً  
ما جنسى مثلها للممرك جاني  
وقياسه الهوى في قوله:

وقرين أسباب الهوى لتيم  
يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعاً  
وتشكيه الذي أشجى فيه إذ يقول:

لعمرك ما جاورت غمدان طائعاً  
وقصر شعوب أن أكون به صبأً<sup>(٢)</sup>

(١) ما يبء به دم: لا يؤخذ له بثأر - وغلقت الرهن في يد المرتين إذا لم يقدر الراهن على افتكاكه في الوقت المشروط.

(٢) غمدان: قصر باليمن كان من أعاجيب عصره. وقصر شعوب كذلك من قصور اليمن.

ولكنّ حمى أضرعتني ثلاثة  
 وحتى لو أن الخلد يعرض إن مشيت  
 مجرّمة ثم استمرت بنا غيباً<sup>(١)</sup>  
 فإنك لو أبصرت يوم سُويقة  
 إلى الباب رجلي ما نقلت لها إرباً<sup>(٢)</sup>  
 ومصرع إخوان كأن أنينهم  
 مُناخي وجسي العيس داميةً حُديباً<sup>(٣)</sup>  
 أنين مكابي فارقت بلدًا خضباً<sup>(٤)</sup>  
 وإذا لاقشعرّ الجلد منك صبايةً  
 ولاستفرغت عيناك من عبرة سكبنا  
 وكلمة مصعب مثبتة في الجزء الأول من الأغاني، فليرجع إليها القارئ فقد يرى  
 غير ما نراه.

(١) أضرعتني: أضعفتني وأذلتني. مجرمة: كاملة - والغب من الحمى ما تأخذ يوماً وتدع يوماً.

(٢) ما نقلت لها إرباً: ما حركت لها عضواً.

(٣) حذب جمع حدياء وهي الدامية التي تقوس ظهرها هزاً.

(٤) المكابي جمع مكاء، وهو طير يشبه القبرة أبلق الجناحين.